هذه المعركة المزمنة بين أدبين !

للأستاذ كرم ملحم كرم

إنها لمعركة مزمنة حقاً ، هذه المعركة بين الجديد والقديم . فهي معركة حامية لا تنطفىء لها نار ولا يخبو منها أوار . فالشباب والشيب يتطاحنان . التربع في القمة يصارع الواقف في ساحل الحياة ، الضاحك للمستقبل ، المتقلب في أحضان الربيع ، الناعم باخضرار العيش ، يقاتل من يحاذر الوقوع في اللجة . الهاتف بل فيه « النَّدُلى ! . » يغالب المتمسك بأذيال الحياة لئلا يبتلعه الموت !

ومعركة القديم والجديد بدأت منذ الأزل وسوف تتصل بالأبد . فان هذا التطاحن بين ابن الأمس وابن اليوم حديث كل يوم . هذا التطاحن بين ابن الأمس الخائف على مكانته من التهشيم والتحطيم ، وابن اليوم الراغب في أن يشق لنفسه طريقاً إلى الشمس ، القائل للقديم المزمن : « دعني أحتل مقعدك ! . » ، هذا التنافر ابن عصور ودهور ، انبثق يوم انبثاق الكون ، وسيرافق الكون في مراحله الطوال لا يزول منه إلا يوم يزول

فالشباب ينيطه أن يطأطىء الرأس للمشيب ، أن يعترف له أبداً بالسيادة ، أن يقف حياله مكتوف اليدين ، فيصيح به : « نلت نصيبك من دنياك فلا تحرمني نصيبي ! . . » فيأبى من أدركهم المشيب أن يتزحزحوا من أماكن استقروا فيها بعد جهد ومشقة . ويغضب الشباب وفي أعصابه جمر ونار فيثور وتشب المعركة . ولا يسلم الفريقان من شظايا القدح والنقد والتعريض . الشيخ العتيق يسخر بثمار عقول الشباب . والرائع في مقتبل العمر يهز بيده الهند الصقيل مهدداً متوعداً ، وتتساقط الضحايا في الميادين . ويقول القائلون : « المعركة بين القديم والجديد ! . . » ويخيل إلى بعضهم أن الأدب القديم هو ما جاد به الطاعنون في السن . وأن الأدب الجديد هو ما يتحفهم به كل ناضر العود . على حين أن بين ذوي الأنياب الصفر فئة لا يبلى لها طارف ولا تليد . فالجديد ما تنفث وتكتب وتنظم ، كما أن بين الفتيان الأفراخ الرغب الحواصل ، فريقاً لا يحسن الابتكار ولا التوليد ، فانه لفارق في القديم إلى الأذنين ، ويأبى إلا أن يحارب كل من أسنّ وشاب وشاخ ، وبات على قيد خطوة من يومه الأخير !

وهذه المعركة لا يصح القول عنها أنها بين أدب قديم وأدب جديد . إن هي إلا بين المشيب والشباب ، بين قوم تمتعوا بأطايب دهرهم وأدركوا الشهرة الواسعة والصيت البعيد ، وقوم يريدون قسمتهم من قرص الحلوى . فهم نهمون شرهون جائعون ، يلتمسون الأكلة الشهية يتذوقونها ، مع أنهم في الخطوات الأولى من عهد الفطام .

ومثل هذا النضال ما خلا منه عهد . أما سمعنا جريراً يقول حين سئل رأيه في الأخطل : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلني !

فالأخطل أكبر من جرير سناً . وقد تحكك به جرير ليدرك المنزلة العليا فأدركها ، وهناك من شاء الاقتداء بجرير في التحكك بالطاعنين في السن . فزيد بشار بن برد الشاعر الفحل الضرير . فقد راش بسهامه جريراً . على أن جريراً لم يرد عليه . وكان يقول حين يبلغه طعن بشار : مالنا ولهذا الغلام الحامل الترّ رفع قدره !

فقيل لبشار : بم أساء إليك جرير ؟

قال : لم تبلني منه إساءة . على أني وددت أن يهجوني . ولو فعل لكنت أشعر شعراء العرب أجمعين !

وغاظ المعرى أن يسمع : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ . » فأنشد قصيدة من عالي الشعر جاء فيها :

على أنه قد تترتب على هذا التطور نتيجة هامة هي توطيد دعائم التوازن الأوربي واقصاء شبح الحرب من أوروبا الى حين . ذلك أن وقوف روسيا إلى جانب فرنسا ودول الاتفاق الصغير على نحو ما بينا يقوى الجبهة الشرقية المعادية لألمانيا ، ويحمل ألمانيا على التأمل والتريث ، ويزيد من جهة أخرى في طمأنينة فرنسا ، وفرنسا وألمانيا هما طرفا الخصومة الأوربية ، وعلى موقفهما وعلائقهما يتوقف السلام والحرب الى حد كبير . وهذا التحالف بين فرنسا وروسيا يعود بنا الى ما قبل الحرب ، وهو نتيجة طبيعية للسياسة التقليدية التي سارت عليها روسيا وفرنسا منذ الحرب الفرنسية الألمانية في سنة ١٨٧٠ ، وأثناء الحرب الكبرى .

محمد عبد الله عنانه
المحامي

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائلُ

فالتطاحن بين القديم والجديد ليس ابن يومه . فكلٌّ يريد المقام الأول . والشجيرة يؤلمها أن تخيم عليها الشجرة فتسعى إلى امتصاصها كي تذبل وتجف . هي سنة تنازع البقاء . الشاب يدفع الشيخ إلى الهوة ليقوم مقامه ، والقوى ينشب أظفاره في الضعيف لتخلو له الساحة . وقد يكون هذا الشيخ من أنصار التجديد . ولكن الشاب لم يطق ظله ، فحفر له الحفرة ووقف يشهد مصرعه فيها .

إذاً من هم أنصار الأدب القديم ؟

من هم المتمسكون به والداعون اليه ؟

لاجدال في أن الأدب القديم ركن الأدب الجديد . فالأدب الجديد لم ينشأ عفواً ، بل تسلق قواعد القديم وشيد عليها قواعده الخاصة يستند إليها ويحيا بها . فالأدب القديم أبوه ، على أن الابن وإن يكن تغذى بمن أبيه فقد أظهر فيما شيد لنفسه من بنيان أنه مستقل . فان حجارة هيكله تختلف في حجمها ولونها وشكلها عن حجارة هيكل المتقدمين . بل هو خالفهم في البناء نفسه . فجعلوا هيكلهم مستطيلاً . فأبى إلا أن يشيد هيكله مستديراً ، وبنوه عالي القباب فرفعه ناتئاً يشك في الأجواء . بدا هيكلهم في منظر خشن فتلألأ هيكله لطيف الشكل ، مصقول الجدران ، ترتاح العين لرؤيته وينعم فيه النظر بلا ملال .

والأدب الجديد ليس وليد عصر معروف ، فكل عصر يحفل بالقديم والجديد ، كل عصر يبرز فيه هيكلان يختلفان شكلاً ولوناً وذوقاً . كل عصر يدين بهذين المذهبين ويقوم فيه من يناصر القديم ويظاهر الجديد . وليس نصير القديم من وقف على الأطلال فبكى واستبكى ، فان بعضهم يقف على الأطلال ويجود بالشائق الرضي . أما أنشد داود عمون :

هاج أشواقي الى الدمن طائرٌ غنى على فنن

وداود عمون شاعر ثوى منذ سنوات قلائل في مقره الأخير . وقد جاء شعره في الدمن من أرق الشعر ، فلا هو بالخشن المبتذل ولا الجاف الغليظ ، فالعذوبة وافرة فيه ، والقوة محكمة في ديباجته العالية .

وليس كل من تحدث عن الأبل والنوق بنصير القديم . فالنخل البشكري لم يكن من أنصار القديم حين قال :

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

لا ، فان في هذا الشعر لظرفاً ، وإن فيه لأمعاناً في التوكيد على نحو ما جاء في قول أبي نواس :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

إن فيه لرونقاً ، فهو بعيد عن التكلف في سبكه ومعناه . وكل شعر جامع للرونق خال من التكلف والغلو الفحّاش يطمئن اليه كل جيل ، ويرضى عنه الأدب الجديد .

فما هو الأدب القديم إذاً ؟ . . .

الأدب القديم هو الحافل بغريب الكلام ووحشي الألفاظ ، المثقل بالتقليد ، الراكد في معناه ومبناه ، فلا ابتكار ولا روعة ولا سهولة ولا ذوق ، هو المنسوج على منوال خشن ، الضخم الكلمات ، الطنان الأجوف القائم على صناعة الألفاظ ، المحشو تكلفاً وتعقيداً ، البارد لفرط ما لاكته الألسن ومضغته الأفواه .

الأدب القديم هو الأدب المطبوع بطابع عصر معلوم ، جاء من يبعثه حياً في عصر لم يخلق له ، فاذا نحن رأينا في شعر امرىء القيس شيئاً جديداً فهناك مالا يصح قوله في عصر غير عصر الشاعر الضليل ، فقد قيل في زمن يجب ألا يتخطاه الى زمن آخر ؛ وقد تبدلت العادات وتبدل الناس ، والجديد الجديد في شعر امرىء القيس تشابيهه واستعاراته . وهذه التشابيه والاستعارات ملك الشاعر لايجوز لأحد أن ينطو عليها وإلا كان سارقاً . كان أشبه بالضاحك من نفسه ليخدعها وانما يهين نفسه .

فالابتكار في الأدب أشبه بالابتكار والاختراع في سائر الفنون . فمن ابتكر في أسلوب الانشاء مذهباً جديداً بات هذا الأسلوب معروفاً باسمه ، ومن جادت قريحته بتشبيه جديد لايجوز لأي أديب بعده أن يأخذ عنه هذا التشبيه ويتبناه وهو ليس من تواليده ، وإلا كان سالخاً ضعيف المخيلة ، قاصر اليد .

والأديب العربي لا يكون اليوم مبدعاً إذا أتحف الأدب بروايات أشبه بمقامات الهمذاني والحريري ، فان ذلك النسيج من ثمار عصر مضى ، وهو مما تستحسن حياكته في أيام الانحطاط لأنهاض اللغة وإذاعة مفرداتها ، فتلتقطها الأذهان وتستعين بها الأقلام ، أما اليوم فان أسلوب المقامات لايحتسيه أبناء العصر

ولا يستسيغونه ، فقد تبدل أسلوب الأنشاء تبدلاً عظيماً ، فات السجع ، ومات التقعر والتحذلق والأنصراف الى الألفاظ دون المعانى ، وأضحى الأسلوب السارى كلّ واضح جلىّ قريب الى الذهن والفهم .

ولا فرق فى هذا الواضح الجلىّ سواء انتقل الينا من الجاهلية أو صدر الاسلام ، أو الأعصر العباسية ، أو عصر الأنحطاط ، أو عصر الأنبعاث ، فان إنشاء ابن المقفع لايبلى فى أى عهد ، ومثله الجاحظ ، وابن الأثير ، والأصبهانى ، وابن عبد ربه ، وابن خلدون ، مع أن انشاء ابن خلدون أخذ يتقادم عهده وفيه من التطويل مافيه .

واللغات كلها طافحة بأساليب الأنشاء . وإنها لتحوى من الأساليب الممتعة مالا تقوى على محوه يد الدهر ، ولاتؤثر فيه سنة بقاء الأنسب ، فهى صامدة للصروف لاترث منها القوى ولاينصل لونها وهى صافية نقية كزرقة السماء .

وهذه الأساليب يصح أن نطلق عليها اسم الأدب الجديد ، وهى الخالدة ، وهى مرجع الطلاب والأدباء ، كساها منشئوها المعنى الجميل فى المبنى السليم ، فأضحت لا تنبو عنها الأذن ولاينكرها أى جيل ، وهو بها قرير ضنين .

وما يقال فى النثر يقال فى الشعر . فالشعر الناضج بالعصير الشعرى لايفنى ، على حين أن الشعر اليابس لاتقوم له قائمة فى سوى يومه ولو أنشده المتنبى ، فان شعر عمر بن أبى ربيعة ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وابن الدمينة ، وعباس بن الأحنف ، وابن زريق ، وأبى نواس ، والشريف الرضى ، والبهاء زهير ، وابن المعتز ، وأبى فراس ، وشعراء الأندلس فى معظمهم ، مما يصح أن يقال اليوم وينشد ، وتقتبس طريقته ، ويهتدى بنوره ، اللهم اذا تغاضينا عن بعض مناحى هذا الشعر اقتضاه روح العصر ، وكثيراً مايكون هذا الروح نائياً عن حضارة العصر الذى يلى .

فان هؤلاء الشعراء جمع منظومهم الرقة والروعة والوضوح ، وكل شعر يرتع فى هذه الميزات لا يعرف الأنقراض ، خصوصاً وهو مستمد من العاطفة ، والعاطفة لاتموت ، فالقلوب تخفق أبداً بها . وكل شعر أوحت به العاطفة وعته الذاكرة ، ورددته اللسان ، وابتهج به الخاطر ، وتناقلته الكتب والأفواه من عهد الى عهد ، وهو الشعر الذى يفرض مشيئته على الأيام والسنين .

وللشعراء الهجائين منزلة وشأن لدى الحفاظ والرواة . ويمكن القول أن شعرهم يقوم على العاطفة ، أفلا تتبدل هذه العاطفة بما يتبدل به القلب ؟ . . ألا تخضع لسلطان الهوى ؟ . . . وشعر الهجاء يثيره الهوى . إذاً فهو شعر عاطفى . ولهذا الشعر حظه من البقاء والخلود إن يكن جميلا فريدا ، على طراز ما أتحفنا به الحطيئة والأخطل والفرزدق وجرير وبشار ودعبل وابن الرومى والمتنبى . فان شعر الهجاء أقرب الى الحفظ وأبقى أثراً . فالنفس وهى الأمارة بالسوء تميل إلى الهجاء وترتاح له أكثر منها الى إحراق البخور وتقبيل الأذيال .

ولسنا ندعو بالخلود لكل شعر عاطفى ، ولكننا نقول إن شعر العاطفة يملك ميزة الخلود أكثر من أى شعر آخر ، ويأتى بعده شعر الوصف ، على أن يكون بليغاً رشيقاً غير مسبوق اليه . ويقبل فى الدرجة الثالثة شعر الحكمة إذا أفرط فيه قائله تبرأ منه الشعر .

ولا يكتب الخلود لشعر الحكمة إلا اذا قاله من أرغم البهرج على الاصغاء الى إنشاده وأسمعت كلماته من به صمم ؛ ومع أن المتنبى يسير فى طليعة من صاغ هذا الشعر فلا يستطاع الجزم بأن حكمياته تستاغ فى كل عصر ، فهى من بنات عصرها . وقد ظهر خاتم ذلك العصر فيها . ومن المحال أن يحاول تقليدها أى عصر جديد . وكل من استهواه تقليدها فهو من طبقة المحافظين .

لا نكير فى أن فى هذا الشعر قوة ومناعة وحسن صياغة . ولكن صب الحكمة فى الشعر ليس مما يشمله الأدب الجديد . فالأدب الجديد فى الشعر عاطفة ووصف . وما جاوز العاطفة والوصف بليد . ويجوز أن تطفو الحكمة فى بعض المواقف . إلا أن الأغراق فيها يذهب برونق الشعر . ويرصف هذا الشعر فوق أكداس القديم .

ومن الواجب على الأدباء والمتأدبين الأكثار من مطالعة أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء . ففى مطالعة هؤلاء الأئمة ما يساعد على اقتباس العصمة والقوة والفخامة . إلا أن التشبه بهم يدل على العقم والعجز عن التوليد ، يدل على الانغماس فى التقليد ، على الغرق فى بحيرة ملأى منذ الف عام . فمن خاض عبابها ، لن يبلغ شاطئها

الآخر وإذا بلغ هذا الشاطىء فأى فضل هو فضله وقد كان تابعاً لا متبوعاً ، وقد وقف حيث وقف سواه ؟ . .

ولماذا الاقتداء بأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء فى شعرهم الضخم الجامع الى القديم أكثر منه الى الجديد ، وهناك عمر بن أبي ربيعة فى قالبه الصحيح العذب الرسيل ؟... فان ابن أبي ربيعة ابن كل عصر ، على حين أن المتنبي ابن عصر أو عصرين أو ثلاثة . فان شعر زعيم الغزليين يقال وينشد ويردد اليوم وغداً وبعد غد ، ويدغم فيما يقال اليوم وغداً وبعد غد كأنه منه وفيه . فلا يجفوه عصر ولا يعرض عنه أى عهد . بينما المتنبي لا يرحب بأسلوبه كل جيل ، وإن يكن ثمة من اعترف به سيد الشعراء .

وكيف تسمع عمر بن أبي ربيعة ينشدك أبياته :

تقول وليـــدتي لما رأتني ... طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت أمراً ... وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء ... إذا ما شئت فارقت القرينا
بعينك هل رأيت لها رسولاً ... فساقك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا الىّ أخ محب ... كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص علىّ ما يلـــقى بهند ... وذكر بعض ما كنا نسينا
وذو القلب المحب وإن تعزى ... مشوق حين يلقى العاشقينا

كيف تسمع هذا الشعر ولا تحسبه من مواليد اليوم ، بل من مواليد كل يوم ، وهو الوضاء الصافى ، الأنيق الرقيق ؟ . .

وهذا ابن الدمينة هلا أصغينا اليه فى قوله :

ألا ياسبا نجد متى هجت من نجد
فقد زادنى مسراك وجدا على وجد
أإن هتفت ورقاء فى رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الحزين صـــبابة
وذبت من الشوق المبرّح والصد

هلا أصغينا الى هذا الشعر البهى القشيب وهو يحدثنا بلغة اليوم وروح اليوم ؟ . . .

قيل كان العباس بن الأحنف إذا سمع هـذا الشعر تتزح منه الأعطاف ، وكاد لفرط اعجابه به ينطح برأسه العمود . فقد تعشقه ابن الدمينة بلا خمر .

وأبو فراس أى عصر لا يفتح له صدره وقصائده من بنات كل عصر :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ولا أمر

وماذا تقول فى شعر النازى يوم فزع الى الوادى الظليل هربا من الحر .

نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنوّ المرضعات على الفطيم
تروع حصاه حالية الغذارى ... فتلمس جانبيْ العقد النظيم

ألا يسير هذا الشعر فى ركاب كل عصر ؟ .

والبهاء زهير ؟ . . أتنسى البهاء زهيراً ؟ . .

أنا من تسمع عنه وترى ... لا تكذّب فى غرامى خبرا

وماذا نطلب فى الشعر إلا أن ينهج هذا النهج ، إلا أن يصدر عن هذا المورد ؟ . ماذا نبغى منه إلا أن يبقى أبداً شهى المذاق ، اذا رددناه فى كل ثانية أطربنا ورجونا أن نستزاد منه ، فلا يتنكر له زمن من الأزمان ، ولا تشد دونه الأسماع كلما قام للأدب العربى كيان .

فالأدب الجديد إذاً هو المبتكر ، الفريد ، السائغ ، الرائع الديباجة ، الواضح الجلى ، الذى يرضى عنه كل عصر ، ويهضمه كل جيل ، فلا يؤلم السميع بغريب الألفاظ ، ولا بالنافر من المعانى ، ولا بالتكلف والتعقيد .

والأدب القديم هو المثقل بالتقليد ، المطبوع بطابع عصر خاص لا يعدوه ، المتمحس فى السجع فى نثره ، والمتوكىء على الألفاظ والتفلسف فى شعره ، العويص ، الخشن ، الوحشى الكلمات والمعانى ، هو ما يحتاج إلى القاموس كلما خطر لك أن تجيل الأنظار

ومثل هذا الأدب شؤم على اللغة والبيان ، إلا أن المحافظين يستمرئونه ، بينما أنصار التجديد يشنون عليه الغارة ، وينادون إلى استئصاله وهو أدب راكد ، والأدب الراكد لا يعيش !

وقد طال التطاحن بين أنصار الأدبين . وسيطول كلما بقى فى الأدب قديم وجديد . وعندنا أن الأدب الجدير بالحياة ما استوفى شروط البيان ، وحفل بالمبتكر ، وهز النفس ؛ وأرغمك على قراءته والأصغاء اليه ، واستعادة قراءته والاصغاء إليه ، هو ما أطربك كلما رويته ووقفت على بدائعه وآياته . هو مارمى إلى أبعد مما يرمى اليه مقال فى صحيفة سيارة ينشر اليوم ليطوى غداً . . !

بيروت

كرم ملحم كرم
صاحب جريدة « العاصفة »